دراسات وبحوث:

ملا صدرا ودلتاي ورؤيتُهما حول تجربة الحياة[1]

علي صادقي نژاد (نجاد)[2] مهدي منفرد[3]

ترجمة: محمد فراس الحلباوي[4]

ملخّص

(دلتاي) فيلسوفٌ من فلاسفة الحياة الذينَ دقَّقوا في مفهوم الحياة. وثمّةَ تَشابُهاتٌ كثيرةٌ لرؤيته حول "تجربة الحياة" مع مفهوم الحياة لدى (ملا صدرا) في الحِكمة المُتعالية. المَقصودُ من مصطلح "تجربة الحياة" في هذا المقال ليس التَّجربةَ المَعيشة في فلسفة (دلتاي)، بل هي أيُّ نظرةٍ ذاتُ طابع زمنيٍّ للحياة، بحيثُ تَدرس نشاطاتِ الإنسان على مرِّ الزَّمان.

تُظهرُ دراسةُ الأهداف العامّة والمَسار الكلِّيِّ لهذَين الفيلسوفَين، وكذلك الميِّزاتُ الخاصّةُ بتجربة الحياة، نوعًا من التَّقارُب والتَّوافُق في هذه القضيّة، التي يُمكِنُ المُقارَنَةُ من خلالها بينَ رُؤى هذَين المُفكِّرينَ. وسيَتطرَّقُ هذا المقالُ إلى أمور، كتاريخ الإحساس بالتَّجربة، والسِّجلِّ الزَّمنيِّ لها، وكيفيّة إدراكها. كما يُعدُّ سريانُ الحياة والإدراكُ الفَعَّالُ والمُشترك والمُباشر للحياة من النِّقاط المُتماهية الأهمِّ بين الفيلسوفَين، أي تَترافَقُ النَّفسُ خلال حركتها وسريانها في الحياة بنَضْجٍ للقِيَم، فتَقوم لاستكمال نفسِها بالعملِ الإراديِّ المُنبثِق عنها، وتُحدِّد (تُعيِّن) بدنَها المثاليَّ الخاصَّ بها إثرَ ذلك.

الكلمات المفتاحية:

أصالة الوجود، تجربة الحياة، الحركة في الجوهر، دلتاي، ملا صدرا.

1 - الأصل الفارسي: مجلة فلسفة الدين، الدورة 16، العدد 3، قم، خريف 2019، ص.ص 479-498.

2 - طالب دكتوراه الفلسفة وعلم الكلام الإسلامي، جامعة قم، قم، إيران

3 - أستاذ مساعد في قسم الفلسفة وعلم الكلام الإسلامي، جامعة قم، قم، إيران

4 - دكتوراه في اللغة الفارسية وآدابها، ومحاضر في جامعة دمشق.

مقدّمة

كان مفهومُ الحياة دائمًا من أهمِّ القضايا التي جَرى التَّطرُّقُ إليها منذ العصور المُنصرمة وحتَّى الآن. فتَعريفُ الحياة وماهيّتها وميِّزاتها أمرٌ مُعقَّدٌ للغاية، ولا سيَّما عندما يتعلَّقُ الأمرُ بالإنسان. وجماليّاتُ الحياة وتَعقيداتُها تُصبح أكثرَ وُضوحًا عندما تتشكَّلُ من خلال تجارب الإنسان المباشرة والكثيرة عبرَ الزَّمن. والآنَ، إذا كان مُتعلَّقُ هذه التَّجربة هو الإنسانُ بنفسه وأفعاله وإرادته، وكانَت حياتُه مباشرة ودون واسطة، فإنَّ النَّتيجةَ ستكونُ معرفةً جديدة عن الإنسان ووَعيه بنفسه والعالَم الخارجيِّ. هذا هو ما يُسمِّيه (دلتاي) "التَّجربةَ المَعيشة" ويَعتقدُ أنَّها قد تكون أُسًّا للعُلوم الإنسانية. وتكمن ضرورةُ تناوُل هذا الاختلاف في الرَّأي حولَ مفهوم الحياة في أنَّ نوعَ النَّظرة المُعتمَدة قد يُحدِثُ اختلافاتٍ في كيفيّة تَفسير العلوم الإنسانية وإنتاجها.

(ويليام دلتاي)(1833 - 1911م) (Wilhelm Dilthey) فيلسوفٌ ألمانيٌّ معروفٌ، يُضاهي (نيتشه - Nietzsche) و (برغسون - Bergson)، وهو أحدُ الفلاسفة الذين تناولوا نصَّ الحياة، فوصفَ المُهمّةَ النَّقديةَ للفلسفة بأنَّها تَوضيحٌ للهياكل الشّاملة التي تُعبِّرُ عن رُوح الإنسان بشكلٍ عامٍّ. عرَّفَ (دلتاي) في بداية حياته "الفلسفةَ" بأنَّها: "علمٌ تَجريبيٌّ يتعلَّقُ بالمَظاهر الرُّوحيّة، يَسعى إلى التعرُّف على القوانين السّائدة في الظَّواهر الاجتماعية الفِكريّة والأخلاقية"[1].

الفيلسوفُ الإسلاميُّ الكبير (صدر الدِّين محمد بن إبراهيم قوام الشِّيرازي) (979هـ-1045-هـ) لَديه أيضًا آراءٌ مُهمّةٌ حول حياة الإنسان وأبعادها المختلفة، مثل النَّفس، حيث تُوجَد لَديه العديدُ من التَّوافُقات والتَّشابُهات مع (دلتاي) وبياناته على الرغم من أن (ملا صدرا) في فلسفته، أي

1 - رودلف مكريل: دلتاى و يورك ، دانشنامه فلسفى استانفورد [دلتاي ويورك، دائرة معارف ستانفورد]، ص15.

"الحكمة المُتعالية"، لا يَمتلكُ مَفهومًا يُسمَّى "التَّجربة المَعيشة"، وفي حُكم مُؤرِّخي الفلسفة المُعاصِرة لا يُعَدُّ (ملا صدرا) فيلسوفَ حياة، إلَّا أنَّ الآراء التي يَعرضُها في "الحكمة المتعالية" حول حياة الإنسان والنَّفس والرُّوح تَحتوي على عناصر تَعكس صورةً قريبةً جدًّا من "التَّجربة المَعيشة" في فلسفة (دلتاي).

تُظهرُ نظرةٌ دقيقةٌ إلى آراء (ملا صدرا) في مسألة النَّفس وقواها، و"الحركة في الجوهر" و"عالم المثال"، هذا الأمرَ بأنَّ نظريّات (صدر الدِّين الشيرازي) تتجاوز في العديد من الحالات مُجرَّدَ حالة من الاقتراب من آراء (دلتاي)، بل قد تُشكِّلُ نوعًا من التَّوافُق بين هذَين الفيلسوفَين، حيثُ يَنظر (ملا صدرا) إلى الحكمة باعتبارها معرفةً نظريّةً بها، ومن خلالها تكمل نفسُ الإنسان، ومن خلالها يُصبحُ العالَمُ العقليُّ لَديه مُشابهًا للعالَم العَينيِّ، ومن خلالها يَكتسبُ الاستعدادَ للوصول إلى السَّعادة[1]، ومن وُجهة نظر (الملا صدرا)، "الحِكمةُ المُتعالية" هي أسفارٌ يَنبغي على الإنسان أن يَقطعَها للوُصول إلى العالَم العَقليِّ المُتوافق مع العالَم العَينيِّ.

إنَّ مقارنةَ موضوعٍ ما في فلسفتَين مختلفتَين يتطلَّبُ التَّطرُّقَ إلى أمر يَتجاوزُ التَّشابُهات والاختلافات؛ فالفلسفةُ المقارنةُ ليسَت تاريخَ فلسفة يَنقُلُ آراءَ الفلاسفة ويُقارنُ بَينَها، لذا يجبُ على الباحث أن يتوجَّهَ إلى مبادئ الفلسفات؛ فالفلسفةُ المقارنة في الحقيقة تتحقَّقُ من خلال الحوار والتَّفاهُم بينَ الفلاسفة وفَلسفاتهم[2]. وفي هذا المقال، نَسعى أيضًا لإيجاد التَّوافُقات المُحتملة بينَ هذَين الفيلسوفَين.

من بين الأبحاث المنسوبة إلى (ملا صدرا) و(دلتاي)، يَجري التطرُّقُ غالبًا إلى رأي (دلتاي) حول العلوم الإنسانيّة وإمكانيّة إنتاج هذه العلوم بناءً على نظريّات الـ(ملا صدرا). وعلى الرغم من أنَّ بعضَ الباحثينَ قد اهتمَّ بمقارنة مفهوم "العلم الحُضوري" لـ(ملا صدرا) مع "تجربة الحياة" لدى (دلتاي)، إلا أنَّهُم اقتصروا على تحليل الأدوات المعرفيّة لهذَين الفيلسوفَين[3]، فيما يتميَّزُ

1 - محمد بن إبراهيم الشيرازي [ملا صدرا]: شرح الهداية الأثيرية، ص6.

2 - مهدي منفرد: "ما الفلسفة المقارنة؟"، ص25.

3 - حسن رهبر؛ وعلي رضا حسن پور: "التجربة المعاشة والعلم الحضوري توجهان في النظم المعرفي لدلتاي والملاصدرا"، ص85.

هذا البحث عن غيره بمحاولةِ تَحليل مفهوم "تجربة الحياة" وميِّزاته، مع دراسة نقاطِ الاشتراك بين الفيلسوفَينِ.

أولًا: ماهية "تجربة الحياة"

قبلَ الدُّخول في مسألة المقارنة بين رأيَي هذين الفيلسوفَينِ، من الضَّروريِّ تَوضيحُ ما يَعنيه هذا المقال بـ"التَّجربة المَعيشة". إذا سلَّمْنا أنَّ فلسفةَ (ملا صدرا) تتمحوَرُ حول مفهوم الوُجود، وقد أدرجَ تَعريف "الحياة" ضمنَ إطار المسائل الفلسفيّة. وهو ما يُعبِّرُ عنه (دلتاي) بلفظ "التَّجربة المَعيشة"، وعلى الرغم من أنَّه لا يُمكِنُ العُثورُ على عبارة "التَّجربة المعيشة" ضمنَ عبارات (ملا صدرا).

في هذا المقال، لا نَعتزِمُ النَّظرَ إلى "التَّجربة المَعيشة" وهو مصطلح يختصُّ بـ(دلتاي) من منظور (ملا صدرا)، بالنَّفي أو الإثبات، بل إنَّ رسالةَ هذا المقال هي دراسة الزَّوايا المختلفة التي نظرَ إليها هذان الفيلسوفان من خلال "تجربة الحياة"، أي ستُحلَّل هنا تلك المجموعةُ من الآراء الفلسفية التي تَتناول الحياةَ عبر الزَّمن دراسةً ووصفًا. لذلك، يجبُ البحثُ ضمنَ نصوص (ملا صدرا) عن الأبحاث والآراء ذاتِ الصِّلة معَها؛ فالأبحاث المُتعلِّقةُ بهذه المسألة غالبًا ما عُرِضَت ضمن مباحث: "خصائص الوجود" و"الحركة في الجوهر للنَّفس" و"عالَم الخيال" و"المَعاد الجسماني" في منظومة أفكار "الحكمة المُتعالية".

في "الحكمة المُتعالية"، تَعود الحياة إلى "خصائص الوُجود" وتُدرَسُ في إطار ذلك. يَدرُسُ (ملا صدرا) الحياةَ من خلال البُعد الوُجوديِّ، ويَعدُّها من الخصائص الذاتية للوجود. وفي تَوضيح هذه المسألة، يَنبغي الإشارةُ إلى أنَّ الوجودَ عند (ملا صدرا) هو حقيقةٌ ذاتُ مراتبَ تتَّسمُ بالتَّشكيك[1]، كما أنَّ الحياةَ هي من الخصائص الذاتية له، والوجودُ كمفهوم هو حقيقةٌ تَسري وتَجري في جميع المَوجودات بحالةٍ من التَّشكيك كلٌّ حسب وعائه كمالاً ونقصًا، كما

1 - التشـكيك هنا ليس بمعنى الشـك والترديد بكون شيء ما موجودًا أو عدمًا إنما يعني أن للوجود درجات أكمل وأتم أو أدنى وأقل. (المترجم)

أنَّ صفاتٍ، مثلِ العلم والقُدرة والحياة، تَسري أيضًا بنفس شكلِ سَريانِ الوجود[1]. ونظرًا لأنَّ للوجود مراتبَ ودرجاتٍ، فكلَّما كان الوجودُ أقوى كانَتِ "الحياة" في المَوجود أقوى. ولمّا كان الإنسانُ يتحرَّكُ سائرًا بقوسِه الصُّعوديِّ نحو "واجب الوجود"، فإنَّ لَدَيه، كما يُعبرَّ، مملكةً تُشبهُ مملكةَ خالقِه، تُمكِّنُه من الإبداع والاختيار والإرادة، وهي إرادةٌ تَفتقرُ إليها الكائناتُ الأخرى، فالإنسانُ الكامل الذي حصلَ على قربٍ نِسبيٍّ من واجب الوجودِ يُمكِنُه حتَّى أن يكونَ خالقًا لأشياءَ أُخرى في العالَمِ الخارجيّ[2].

يَعُدُّ (دلتاي) المنهجَ الخاصَّ بالعلوم الإنسانية تجربةً مباشرة تَشتمل على الفَهم المباشر للأمور الباطنية، ويُسمِّيها التَّجربةَ المَعيشةَ[3]. وعند تحقُّق مثلِ هذه التَّجربة لدى فرد من أفراد البشر، ستَغدو هذه التَّجربةُ مَفهومةً أيضًا لدى بقيّةِ البَشر؛ لأنَّه وخلافًا للظَّواهر الفيزيائيّة يُمكِنُ فَهمُ باطن هذه الآثار والأفعال من خلال الطَّبيعة البشرية. وتَعُدُّ تجربةُ الحياة في رؤيةِ (دلتاي) كلَّ متكاملٍ بمعنى مشترك. ربمَّا يُمكِنُ عدُّ كلِّ وحدة شاملة من مكوِّنات الحياة المُرتبِط بعضِها ببعضٍ من خلال معنًى مشترك للحياة تَجربةً، حتَّى عندما تَفصِلُ عدّةَ مُكوِّنات بعضِها عن بعضٍ بواسطة أحداث تَفصِلُ بينَها[4]. ومع اتِّضاحِ المعنى لتجربة الحياة يمُكِنُ دراسة ميّزاتها من مَنظور هذَينِ الفيلسوفَينِ.

ثانيًا: خصائص تجربة الحياة

1 - التاريخ والزَّمن

يُعرَفُ (فيلهلم دلتاي) بشكل أكبرَ بسبب الطَّريقة التي يُميِّزُ بها بين العلوم الطَّبيعية والإنسانية. وفي رُؤيتِه أنَّه بينَما تتمثَّلُ المُهِمّةُ الرئيسيةُ للعلوم الطَّبيعية في الوصول إلى تفسيراتٍ عِلِّيّةٍ قائمةٍ

1 - محمد بن إبراهيم الشيرازي [ملا صدرا]: الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة، ج6، ص117.
2 - م. ن. ج1، ص267.
3 - جولين سمت فروند: آرا ونظريه ها در علوم انسانى [الآراء والرؤى في العلوم الإنسانية]، ص72.
4 - ريتشارد بالمير: علم هرمنوتيك [الهرمنوطيقا]، ص119.

على القوانين، فإنَّ المُهمّةَ المركزية للعلوم الإنسانية هي فَهمُ البُنى المُنظِّمة للحياة البشرية والتاريخية. كان هدفُ (دلتاي) توسعةَ -نقد العقل المَحض- لكانط، الذي يُركِّزُ في المَقام الأول على الطَّبيعة، إلى نَوعٍ من النَّقد للعقل التاريخيِّ، يُمكنُه أن يُعبِّرَ عن الحقائق المُتعلِّقة بالأبعاد الاجتماعية والثَّقافية للتَّجربة البشريّة[1]. يقول (دلتاي) إنَّ العملَ على تشكيل أساسٍ معرفيٍّ للعلوم الإنسانيّة يُمكنُ أن يُطلَقَ عليه نقدُ العقل التّاريخيِّ، أي نقد قُدرة الإنسان على معرفة نفسه والمجتمع والتاريخ الذي أنشأهُ بنفسه. لقد سُمِّيَت المُهمّةُ الأساسية لكلِّ تفكيرٍ حول العلوم الإنسانية نقدَ العقل التّاريخي. فالقَضيّةُ التي يَنبغي حلُّها بالنِّسبة للعقل التاريخيِّ لم تُدرَس كاملةً في نقد كانط للعقل[2].

يُعَدُّ (دلتاي) متابعًا لـــ "المثالية النَّقدية" الكانطية، مع أنَّه يُعَدُّ "فيلسوف حياة" وليس كانطيًّا جديدًا[3]. ما جدَّدَه (دلتاي) كان توجُّهَه الهيرمينوطيقي الرُّومانسي، الذي استخدمَه في فهمه التّاريخيّ. فللفَهم التّاريخيِّ دورٌ رئيسٌ في العلوم الإنسانيّة. الأوّلُ هو أنَّ لتجارب الإنسان طبيعةً تاريخيّةً خلافًا للعلوم الطَّبيعية، إذ تَصدُقُ القوانين الطَّبيعيّةُ على جميع الأزمنة، والثاني أنَّ العلوم الإنسانية لا يُمكنُ أن تَستخدم الأساليبَ "التَّوضيحية" الخاصّةَ بالعلوم الطَّبيعية حول الظَّواهر التي تَدرسها. فالعلومُ الإنسانية لا بدَّ لها أن تَستهدف الفهمَ، وهذا مُتاحٌ من خلال التأويل التّاريخي للبشر[4]، ولهذا السَّبب يُثير (دلتاي) انتقاداتٍ لفلسفة (كانط) بقوله: "تكمُنُ عظمةُ الإنجاز لدى (كانط) في تَحليله الكامل للمعرفة العلمية والرِّياضية. ومع ذلك، يُطرَحُ هذا السُّؤال؛ هل نظريةُ المعرفة التّاريخية التي لم يَستنتِجْها كانط بنفسه متاحةٌ ضمن إطار مَفاهيمه؟"[5].

برأي (دلتاي) أنَّ السَّببَ الكامنَ وراء نجاح العلوم الطبيعيّة في اكتشاف القوانين العلِّيّة في الطَّبيعة هو أنها تُنتزَعُ من نطاق العالَم الخارجيِّ، وأنَّ الأوضاع الباحثة عن الآلية الطَّبيعية تُبيِّن

1 - رودلف مكريل: ديلتاى و يورك دانشنامه فلسفى استنفورد [دلتاي ويورك، دائرة معارف استنفورد]، ص13.
2 - ويلهلم دلتاي: مقدمه بر علوم انسانى [توطئة للعلوم الإنسانية]، ص440.
3 - ريتشارد بالمير: علم هرمنوتيك [الهرمنوطيقا]، ص111.
4 - إيون شرت: فلسفه علوم اجتماعى قاره اى [فلسفة العلوم الاجتماعية القارية]، ص107.
5 - ويلهلم دلتاي: به فهم در آوردن جهان انسانى [فهم العالم البشري]، ص192.

قسمًا من محتويات الحقيقة الخارجية. فالعالَمُ المَعقول للذَّرات والآثار والاهتزازات هو نوعٌ مُنتزَعٌ بدقّةٍ ومُصنَّعٍ من ذلك الشَّيء الذي يُقدّم في التَّجربة والتَّجربة المَعيشة[1]، ويُردِفُ قائلاً: "الأسئلةُ التي يَنبغي علينا جميعًا أن نضعَها أمام الفلسفة لا يمُكنُ الإجابةُ عنها بفرضِ نَوعٍ من الأمور المُسبّقة الجافّة المُرتبطة بنظريّة المَعرفة، بل يمُكنُ تَهيئةُ إجابةٍ عنها من خلال تاريخٍ مُتنامٍ ومُنبثِق عن وجودنا برُمّته"[2]، وبتعبير (دلتاي): "لو فكَّرْنا في باب الزَّمان بعيدًا عماّ نشعرُ به حينئذٍ فسنُدرِكُ أنَّ الأجزاء وأقسام الزَّمان يُشبِهُ بعضُها بعضًا، وأنَّ أصغرَ جزءٍ منها يُشكِّلُ خطًّا أيضًا، وهذه الأجزاء هي تسلسُلٌ وتَوالٍ قد انقضى"[3].

يَرتبطُ هنا التوجُّه التّاريخيُّ لـ (دلتاي) بنَقده لما بعدَ الطَّبيعة؛ إذ يُؤمِنُ بأنَّ ما بعدَ الطَّبيعة هو ظاهرةٌ تُحَدُّ بالإكراهات التّاريخية. والظَّواهر الأخرى من الحياة الذِّهنية تَسبق هذه الظّاهرةَ أو تترافقُ معَها بالحدِّ الأدنى في نظامٍ هادف من التطوُّر العقلانيِّ للإنسان. تشتملُ هذه الظَّواهرُ الأخرى على: الدِّين، الأسطورة، الإلهيات (العقائد)، العلوم الطَّبيعية الخاصة، العلوم الخاصّة المُرتبطة بالحقائق الاجتماعية – التّاريخية، وأخيرًا المُرتبطة بالفِكر الذّاتي ونظريةِ المَعرفة[4].

على الرّغم من أنَّ (دلتاي) قد رفضَ إمكانَ إطلاق أحكامٍ نظريّةٍ تأليفيّةٍ مُسبّقة حول التَّجربة الخارجيّة، إلا أنَّه يتحدَّث عن أحكامٍ تأليفية مُسبقة في التَّجربة الباطنية. ومن الجَليِّ أنَّه يُفكِّر بأنَّ الأخلاقَ تَستلزم القَبولَ بالأوامر المُلزِمة ذاتيًّا دون شروط. يَقيس (دلتاي) الحياةَ الدِّينيةَ أيضًا في الأبعاد التّاريخية: "رسالتي هي أنْ أُدرِكَ أكثرَ طبائعِ الحياة الدِّينية باطنيّةً بينَ طيّاتِ التّاريخ، وأنْ أضعَها ضمنَ بوتقةِ الزَّمانِ، الزَّمانِ الذي يتأثَّرُ حصرًا بالأمور المُتَّصلة بالدَّولة والعِلم"[5].

الحياة برأي (ملا صدرا) هي من الخصائصِ الذّاتيةِ للوجود، وهي أمرٌ يَسري في جميع

1 - رودلف مكريل: ديلتاى و يورك دانشنامه فلسفى استنفورد [دلتاي ويورك، دائرة معارف استنفورد]، ص29.

2 - Wilhelm Dilthey: Introduction to the Human Sciences. (Selected Works Vol. 1), p51 .

3 - Wilhelm Dilthey: The Formation of the Historical World in the Human Sciences. (Selected Works Vol. 3), p93.

4 - ويلهلم دلتاي: مقدمه بر علوم انسانى [توطئة للعلوم الإنسانية]، ص292.

5 - رودلف مكريل: ديلتاى و يورك دانشنامه فلسفى استنفورد [دلتاي ويورك، دائرة معارف استنفورد]، ص21.

المَوجودات. ليسَت الحياةُ وحدَها كذلك بل العلمُ والإرادةُ أيضًا. أي أنَّ كلَّ جوهرٍ في عالَم المادّة هو في طَورِ الحركةِ من القُوّة[1] إلى الفِعلِ، ومن النَّقصِ إلى الكمال. والأعراضُ أيضًا وتَبعًا للجواهرِ هي في حالِ حركة. في عالم المادّة جميعُ الجَواهر والأعراض في حال سَيرٍ نحوَ الكمالِ والفِعلِ الأكثرِ، يَعني أنَّ العالمَ دائمًا حيٌّ ويُوليِّ شطرَ المَرتبة الأعلى من الوجود، أي واجبِ الوُجود الذي هو تامٌّ وكاملٌ، وهو في حالةِ حركةٍ نحوَ الواجب[2]، هذا الأمرُ يَرتبطُ هناك بالحياة، إذ يَرى بأنَّ النَّفسَ البشرية تتمتَّعُ بحركة جوهريّةٍ تُيَمِّمُ شطرَ الكمال. بتعبيرٍ آخرَ إنَّ نفسَ الإنسان جسمانيّةُ الحُدوث ورُوحانيّةُ البَقاء، يَعني أنَّ النَّفسَ في بداية حُدوثِها تكونُ جسمانيّةً، ثمَّ تصِلُ إلى التجرُّدِ المِثاليِّ بالحركة في الجَوهرِ، وتَقوم على تدبير البَدن[3]. وبما أنَّ للنفس مراتبَ عرضيّةً فإنَّ لها مراحلَ على امتداد الزَّمَن، كلٌّ منها يتمتَّعُ بوجودٍ أسمى بالنِّسبة لما يَسبقُه، هذه المراحلُ هي المراحل العنصريّةُ والمَعدنيّةُ والنَّباتيّةُ ذاتُها، والتي تُعَدُّ جميعُها ماديّةً. هذا هو مَعنى أنَّ النَّفسَ جسمانيةُ الحُدوث. وبالتَّدريج تُصبحُ النَّفسُ واجدةً للمراحل الحيوانيّةِ والإنسانيّةِ، وأحيانًا العَقلانيّة، وهي مُجرَّدةٌ، ويُشيرُ تَعبيرُ أنَّ النَّفسَ روحانيّةُ البَقاء إلى هذه المراحل[4].

الزَّمنُ برأي (ملا صدرا) هو أيضًا مقدارُ الحركةِ في الجوهر نفسه، يَعني أنَّ للجَوهرِ أبعادًا ثلاثيّةً من الجانب الذي يتبدَّلُ دائمًا من القوّة إلى الفِعل، فلَهُ امتدادٌ لو عدَدْناه مُبهَمًا أطلقْنا عليه اسمَ الحركة، وإذا عدَدْناه مُتعيِّنًا أسمَيناهُ زَمانًا[5]، وحسبَ تعبير (ملا صدرا) فإنَّ الزَّمانَ ليس إلا الامتدادَ الجوهريَّ للأشياء، أي أنَّ كلَّ جوهرٍ، ومِن بَينه جسمُ الإنسان، لديه طولٌ وعَرضٌ وارتفاعٌ، وله أيضًا بُعدٌ آخَرُ يُسمَّى الزَّمان، وهذا البُعدُ هو طريقةُ وجود جوهرِنا وهو عَينُ جوهرنا، فعندما نَعُدُّ هذا الوجود مُتعيِّنًا وله مِقدارٌ يُعَدُّ زمانًا، وبُعدُه الآخرُ هو المكان[6].

1 - الاستعداد الكامن للوصول إلى ما يجب أن يصل إليه. (المترجم)
2 - محمد بن إبراهيم الشيرازي [ملا صدرا]: مفاتيح الغيب، ص610.
3 - محمد بن إبراهيم الشيرازي [ملا صدرا]: الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة، ج3، ص461.
4 - عبد الرسول عبوديت: درآمدى به نظام حكمت صدرايى [مدخل إلى الحكمة الصدرائية]، ص444.
5 - مرتضى مطهري: حركت و زمان [الحركة والزمان]، ج3، ص104.
6 - م. ن. ص104.

على الرغم من أنَّ "الزَّمان" و "المسار الزَّمني" في "الحكمة المُتعالية" يَختلف عن مفهوم "التّاريخ" لدى (دلتاي)، إلا أنَّه يمُكِنُ العثورُ على نقاط اشتراك وتقارُب بينَ رُؤيتَي (دلتاي) و (صدرا)، لأنَّ (دلتاي) يَرى أنَّ الإدراكَ العامَّ والكلِّيَّ للظَّواهر التاريخيّةً يَنشأُ عن قدرة المُفسِّر على رَبطِ إدراكه الشَّخصيِّ للحقيقة مع مظاهر حياة الإنسان وآثار ذلك في علاقته بالأشياء والحَوادث[1]. فلو قُلنا بأنَّ للحياة والوجود منشأً يتجلىَّ شأنٌ من شُؤونه كلَّ حين، يمُكِنُ آنذاكَ أن ندَّعي أنَّ ثمةَ نوعًا من القُرب والتَّوافق في باب التَّجربة المَعيشة بينَ هذين الفيلسوفَين. في الحقيقة فإنَّ أكثرَ ما يُقرِّبُ هذَين الأمرين أحدهما من الآخر هو التَّفاهُم حول قضيّةِ سَريان الحياة، التي يُعبِّرُ عنها كلٌّ من (دلتاي) ضمنَ إطار خصّيصة الحياة، و(ملا صدرا) في إطار أوصافِ الوجود.

يَعتقد (ملا صدرا) فيما يتعلَّقُ بحقيقة الوجود، يَعني واجبَ الوجود، الذي يُسمِّيه ذاتَ الباري -تعالى- أنَّ اسمَ "الحيِّ" مُشتملٌ على سائر الصِّفاتِ الكماليّة، التي تدلُّ على وجود الوجود، ووجود الإيجاد، ولوازمِها وهي الإرادةُ والقُدرةُ والسَّمع والبَصر والكلام. كذلك فإنَّ صفةَ القَيُّوم أيضًا، بما أنَّها تدلُّ على استمرار القِيام بسائر الأفعال الإلهية، ومن بينها الخلقُ والرِّزقُ والكرمُ واللُّطفُ والعطاء وجميعُ صفات الفعل، فإنَّها تَشتملُ على جميع الصِّفاتِ الجلاليّة[2]، أي أنَّ الحياةَ تَنشأُ من ذات الوجود، وسَريانُها هو تجلٍّ من تجلِّياته، وعلى هذه الأُسس يمُكِنُ رَصدُ التَّوافُقِ بين الفيلسوفَينِ في قضية سَريان الحياة.

2 - الإحساس والتَّجربة

يُؤمِنُ (دلتاي) انطلاقًا من كونه فيلسوفًا للحياة بسَريان الحياة. فبرأيه أنَّ أكثر الأخطاء فداحةً هي أن نظنَّ بأنَّ البلوغَ والنُّضجَ هما هدفان لمَسيرٍ يُقوِّمُ الحياةَ، وأنْ نَعُدَّ السِّنينَ الأولى من الحياة -نتيجةً لهذا النَّمط من التَّفكير- وسيلةً فحسب. أمِنَ المُمكِنِ أن تكونَ تلك السِّنونَ وسيلةً

1 - رضا محمد زاده: "أسس العلوم الإنسانية برؤية دلتاي والملاصدرا"، ص83.

2 - محمد بن إبراهيم الشيرازي [ملا صدرا]: أسرار الآيات، ص44.

لهدف "غيرِ يَقينيٍّ" بأيِّ حال؟ وبدلَ ذلك هذا جزءٌ من طبيعة الحياة يَسعى في كلِّ لحظة ليُعبِّرَ عن "التشبُّعِ القِيَميّ". يَعتقدُ (دلتاي) بأنَّه من غير المُجدي فصلُ الأحاسيسِ والمَشاعر البشرية عن سائر العلاقات بتَمامِها وكمالِها، والتي يرتبطُ بعضُها ببعضٍ في وحدة التَّجربة[1]. تُعطينا المشاعرُ في مقام التَّعامُلِ معَها الإمكانيّةَ لتَقييم العالَم. وقِيَمُنا تُظهر وتُبيِّنُ التَّعامُلَ الذي يَنبثِقُ عنه الأحكامُ استنادًا إلى المشاعر.

وعلى الرغم من أنَّ مجال الغايات يَستند إلى التَّجربة المَعيشة للقِيَم، إلا أنَّ الحياةَ والأحاسيسَ تَحظى بنوعٍ من الهَدفيّة ذاتِ الخلود الباطنيِّ، الذي لا يَدفعُها لتتحوَّلَ إلى رغبة متَّسقة بالعمل، وهكذا فإنَّ الشَّبكة المفهومية للإرادة تَختلف عن الشَّبكة الهَيكليّة للإحساس، ثمَّةَ أحاسيسُ كثيرةٌ تُثير أحاسيسَ أكثرَ، بدلَ أن تُثيرَ الحافزَ للقيام بعملٍ ما كرَدِّ فعلٍ[2]، يقول (دلتاي) في مقال "مَنشأ اعتقادنا بحقيقة العالَم الخارجيِّ وتَبرير ذلك: "إنَّ البنيةَ العامّةَ للحياة النَّفسيّة تتشكَّلُ من انطباعاتٍ "تُثيرُ في نظام حوافزِنا ومُثيراتِنا والأحاسيسِ المُرتبطة بها رُدودَ فعلٍ هادفة."[3]، برأي (دلتاي) أنَّ المفاهيمَ تَقطعُ جَريانَ إدراكِ الحياة وسَرَيانَها: "المَفاهيمُ تقطعُ ما هو متَّصلٌ في سَريانِ الحياة، وتُعيدُ إظهارَ ما هو شاملٌ وأبديٌّ مُعتبرٌ، بغَضِّ النَّظرِ عن الشَّخصِ الذي يُشكِّلُ مفاهيمَه. في حينَ أنَّ تيارَ الحياة له مسارٌ واحدٌ مُتموِّجٌ جارٍ وغيرُ مُنقطِع"[4].

(دلتاي) وبدَلَ أن يَبني المشاعرَ البدائيّةَ عن العالَم الخارجيِّ على استنتاجاتٍ نظريّةٍ مُنبثقة عن مَعلولاتٍ وعِلَلٍ، يُظهرُها بكونها نوعًا من المُقاوَمة المَحسوسة في مُواجهة الإرادة، بحيثُ تَدخلُ جميعَ جوانبِ حياتِنا ساحةٌ خاصّةٌ بمُوازاة رُدودِ أفعالِنا تُجاهَ العالَم. ويمُكنُ لكلِّ وَضعٍ آنيٍّ لَحظيٍّ للإدراك أن "يَمتلِكَ نَوعًا خاصًّا من إظهار الإحساس والإرادة" تقريبًا"[5]، فبمُجرَّدِ

1 - ريتشارد بالمير: علم هرمنوتيك [الهرمنوطيقا]، ص121.

2 - رودلف مكريل: ديلتاى و يورك دانشنامه فلسفى استنفورد [دلتاي ويورك، دائرة معارف استنفورد]، ص48.

3 - م. ن.

4 - ويلهلم دلتاي: تشكل جهان تاريخى در علوم انسان [تشكّل العالم التاريخي في العلوم الإنسانية]، ص.ص. 263-264.

5 - رودلف مكريل: ديلتاى و يورك دانشنامه فلسفى استنفورد [دلتاي ويورك، دائرة معارف استنفورد]، ص38.

أن تُثيرَ الأوضاعُ الخارجيّةُ حِسًّا من الضَّغط أو الشِّدّة، يَظهرُ نوعٌ من السَّعي الرّامي إلى الحفاظ على الوَضع الرّاهن أو تَعديله. في التَّجربة المَعيشة الإرادةُ هي "نوعٌ من الوُقوف الانعكاسيِّ (أو التأمُّليّ) لقَصد يَرنو لتَحقيق وضع ما". لو أطلَقْنا على هذا الوضع من الأمور التي يَنبغي أن تتحقَّقَ تَسميةَ "الغاية" حينَها ما يُتوقَّعُ من هذه الغاية هو نوعُ الإرضاء[1].

يُصبحُ ذلك الشَّيءُ الذي يَصنعُ وحدةً في الزَّمان آناءَ حركة الزّمن ذا مَعنًى، لأنَّهُ المَوجود الأصغَرُ الذي يُطلَقُ عليه اسمُ التَّجربة، لعلَّه في الإمكان تسميةُ كلِّ وَحدة جامعة لأجزاء الحياة (يَرتبطُ بعضُها ببعض عن طريق معنًى مُشترك لسَريان الحياة) تَجربةً. حتى عندَما تَنفصلُ عدّةُ أجزاء أو حوادثُ فاصلةٌ[2].

يَرى (دلتاي) أنَّ التَّجربة تَشتمل على الإدراك المباشر ودونَ واسطة للأمور الباطنيّة، وفي هذا النَّوع من الإدراك لا واسطةَ بينَ المُجرِّب والمُجرَّب، وبتعبير آخرَ إنَّهما يتَّحدان سويّةً. يَنبغي أن نعدَّ منهجَ العلوم الإنسانية تجربةً دون واسطة. وهو المُصطلَحُ الذي يُطلقُ عليه (دلتاي) "التَّجربة المَعيشة". هذه التَّجربة تَختلف عن التَّجربة بالواسطة أو عمّا يُعبرَّ عنه بـ"المَظهر"[3].

إذا تحقَّق هذا النَّوعُ من التَّجربة لدى إنسان ما فإنَّ ذلك يُفهَم من قِبَلِ جميع البَشر، لأنَّه وخلافًا للظَّواهر الفيزيائيّة يُمكنُ إدراكُ باطن هذه الآثار والأفعال بما نتمتَّع به من طَبيعة بشريّة. لذلك فإنَّ "الفَهم" هو عبارة عن الفَهم الإنسانيِّ في باطن إنسان آخرَ على أساس الماهيّة البَشريّة المُشتركة[4]، يُؤمنُ (دلتاي) بقواعدَ ومَبان لفَهم حياة البَشر يُسمِّيها "مَقولات الحياة". ويَرى أنَّ تفسيرَ الوقائع والظَّواهر مُمكنٌ من خلال هذه المَقولات، لذلك فإنَّ نظريّةَ المَعرفة في العلوم الإنسانيّة ليسَت هي المُؤسِّس والمعمار لَها، بل التَّاريخُ هو الذي يُشيِّدُ قوامَها[5].

التَّجربة ليسَت محتوًى انعكاسيًّا لفعل الوَعي، بل هي الفعلُ نفسُه، وليسَت الشَّيءَ الذي

1 - رودلف مكريل: ديلتاى ويورك دانشنامه فلسفى استنفورد [دلتاي ويورك، دائرة معارف استنفورد]، ص48.
2 - ريتشارد بالمير: علم هرمنوتيك [الهرمنوطيقا]، ص119.
3 - جولين سمت فروند: آرا ونظريه ها در علوم انسانى [الآراء والرؤى في العلوم الإنسانية]، ص72.
4 - ويلهلم دلتاي: مقدمه بر علوم انسانى [توطئة للعلوم الإنسانية]، ص.ص. 160-161.
5 - جولين سمت فروند: آرا ونظريه ها در علوم انسانى [الآراء والرؤى في العلوم الإنسانية]، ص71.

نَعيه بأنفسنا. التَّجربةُ هي رُؤيتُنا للحياة التي نَحيا فيها. التَّجربة ليسَت مُحتوًى بَحتًا بل هي وعيٌ بالمقدار نفسه. لا يُمكنُ للتَّجربة أن تُفسَّرَ بحيث يقعُ الوعيُ في مواجهتها ويَقوم بإدراكها. كذلك فإنَّ التَّجربةَ ليسَت "مُعطًى" للوَعي. في الحقيقة إنَّ التَّجربةَ تُوجَدُ قبل انفصال الفاعلِ المُدرِكِ والمَوضوعِ المُدرَك؛ فالتَّجربةُ لا تتمايَزُ عن الإدراك أو الإدراك الباطنيِّ[1]، لا يُؤمِنُ (دلتاي) بالفَصل بين وجود التَّجربة وماهيّتها. بعبارة أفضلَ بما أنَّ التَّجربةَ تَحدُثُ قبلَ انفصال المُدرِك والمُدرَك [المُجرِّب والمُجرَّب]، فإنَّ إدراك التَّجربة هو أساسُ قوامِها، أي لا تَنفصِمُ عُرَى وجود التَّجربة المَعيشة عن ماهيّتها: "إدراكُ التَّجربة وقوامُها عينُ بعضِهما الآخَر: بينَ ما هو "لي هناك" وما هو في التَّجربة "لي هناك"، لا يُوجَد أيُّ انفصال. بعبارة أُخرى التَّجربةُ ليسَت كشيءٍ يَقفُ في مقابلِ تَجربتي، بل هو ذلك الوُجود الذي أحضُرُ فيه ولا يَتجزَّأُ عن بعضِه الآخر"[2].

برأي (ملا صدرا): إنَّ تحقُّقَ المعرفة لأيِّ سنخ له جذرٌ واحد؛ فمَراتب المعرفة الخياليّة والحسِّية والعقلية هي مَراتبُ وُجوديّةٌ لحقيقةٍ واحدة[3]، فهو لا يَرى أصالةً للتَّجربة والحسِّ، ويَعتقدُ أنَّ الإدراكَ الحسيَّ هو لِمَن لم يَنضجوا عقليًّا بعدُ، أي مَن لديهم ضَعفٌ في الإدراك، ولا يُمكِنُهم الوصولُ إلى مرتبة الإدراك العقلي[4].

برأي (ملا صدرا) يُمكِنُ للإنسان مع التَّركيز على نفسه وكونه مَوجودًا مُرتبطًا بالأفراد وباقي الحقائق الطُّولية والعَرْضية في العالم أن يَعقدَ صلةً بين معرفته والحقيقة الأصيلة. ويَنشأ هذا الأمر من القُرب للحقِّ -تعالى- ويُولِّد إمكانيّةً بأن تُصبِحَ سائرُ الموجودات جزءًا من نفس الإنسان الكامل، وتَسري قوّةُ هذه النَّفس فيها، ويُصبحُ وجود النَّفس لهذا الإنسان الكامل هو غاية المَخلوقات[5].

---

1 - ريتشارد بالمير: علم هرمنوتيك [الهرمنوطيقا]، ص120.

2 - م. ن.

3 - محمد بن إبراهيم الشيرازي [ملا صدرا]: الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة، ج3، ص.ص. 383-384.

4 - محمد بن إبراهيم الشيرازي [ملا صدرا]: أسرار الآيات، ص33.

5 - محمد بن إبراهيم الشيرازي [ملا صدرا]: الشواهد الربوبية في المناهج السلوكية، ص.ص. 230-231.

الإنسانُ في رؤية "الحكمة المتعالية" لَديه بدَنان: أحدُهما البَدن الطَّبيعيُّ، والآخرُ البَدنُ المثاليُّ، وهو من فعل النَّفس والفَصل المُميّز لها، ويُشكِّلُ الإدراكُ المباشر الجزئيُّ[1]، حينَما تترسَّخُ الحالاتُ النَّفسانيّةُ للإنسان، وتتبدَّلُ إلى مَلَكاتٍ نَفسانيّة، فإنَّه يُنشئُ البدنَ المثاليَّ بتأثيرٍ من هذه المَلَكات وبالتَّناسُب معَها، وهكذا فإنَّ شكلَ البَدن المثاليِّ للفرد يتغيَّرُ مع ظهور المَلَكات المُختلفة. فلو تأثَّرَتْ هذه المَلَكاتُ بالفَضائل فسيأخذُ البدنُ الطَّبيعيُّ شكلاً أجملَ، ولو تأثَّرَت بالرَّذائلِ فستأخذُ شكلاً قَبيحًا وحَيَوانيًّا[2]، أي أنَّ النَّفسَ حينَ الحركة وسرَيان الحياة تَترافق معَ القيَم الأخلاقيّة، وتُحدِّد بتَجربةِ الأمورِ واكتساب الملكاتِ مسارَ تكامُلِها وتُشكِّلُ بَدنَها المثاليَّ.

يَقول (ملا صدرا) في هذا الشّأن: "الأبدانُ الأخرويّةُ تَتناسب مع الأخلاق ومَلَكات النُّفوس، إذنْ موادُّ هذه النُّفوس لا تَحمل قواها، بل هي أشباحٌ ظِليّةٌ وظِلالٌ مِثاليّةٌ ناتجةٌ عن تلك النُّفوس، وبالطَّبع بالجهة الفاعلية وبدون تدخُّلِ الجهات القابلة"[3]، برأي (ملا صدرا) يمكِنُ للإنسان الكاملِ ليس فقط في عالَم الخيال بل طبقًا لما نُقل عن ابن عربي أن يَخلُقَ الأشياءَ بهمّته[4]، كذلك فإنَّ (ملا صدرا) يُؤمِنُ بأنَّ النَّفسَ أولاً تُنشِئُ بدَنًا مِثاليًّا لها في عالَم البرَزخ، وأنَّ نَعيمَ الجنّة أو عذابات جهنَّمَ جميعها من إنشاءات نفسِ الإنسان التي تشكَّلَت من مَلَكاته النَّفسانية، يَعني أنَّ التَّجاربَ والمُكتَسبات تَصنعُ المَلَكات، وهذه المَلَكاتُ تَغدو في البَرزخ مبدأً لإنشاء الصُّوَر المثاليّة، في مسألة الغايات يَرى (ملا صدرا) أيضًا أنَّ واجبَ الوجود هو الخيرُ الأعلى والأتمُّ، يتَّجهُ كلُّ مَخلوقٍ نحوَه، وهو غايةُ الحركة بنَحوٍ ما ومَحبوبٌ لسائر الموجودات، ومن جملتها الإنسانُ[5].

على الرغم من عدم استخدام مُصطلَح "التّاريخ" في الحكمة المُتعالية، إلا أنَّه قد ميَّزَ بين الحسِّ والتَّجربة، فيُمكِنُ مشاهدةُ تدخُّلٍ لعُنصرِ التّاريخِ أيضًا في تَقسيمه للمعرفة المُستندة إلى

1 - عبد الرسول عبوديت: درآمدى به نظام حكمت صدرايى [مدخل إلى الحكمة الصدرائية]، ص150.
2 - م. ن. ص135.
3 - محمد بن إبراهيم الشيرازي [ملا صدرا]: المبدأ و المعاد، ص349.
4 - محمد بن إبراهيم الشيرازي [ملا صدرا]: الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة، ج1، ص267.
5 - م. ن. ج5، ص294.

آرائه. يَكمنُ الاختلافُ بينَ التَّجربة والحسِّ في أمرٍ مُهمٍّ. في تجربة المعرفة العَقلانيّة ثمّةَ إمكانيّةٌ لتَكرار المَعرفة الحسّية على مرِّ الزَّمان، وهي غيرُ موجودة في الحسِّ أو التَّخيل المَحض. في التَّجربة يَحصل قطعٌ للارتباطات الجزئيّة بينَ المُدرَك الحسِّيّ لتَحقُّق المُدرَك التَّجريبيِّ[1]، لكنْ تَختلفُ رُؤيتُه مع الفلاسفةِ الذينَ سبَقوهُ في أنَّه لا يَعُدُّ عنصرَ التَّكرارِ مُهمًّا لتَحقُّق التَّجربة.

3 - إدراك الحياة

يُمكن الاطِّلاعُ على بحث الإدراك في الحياة في رُؤية هذَين الفيلسوفَين من خلال ثلاثة أفكار: الإدراك المُباشر (دون واسطة) والإدراك المُشترك والإدراك الفعّال:

أ - الإدراك المباشر (دون واسطة)

يَعتقد (دلتاي) بأنَّ الفهمَ هو نوعٌ من الانعكاس (أو نوع من التأمُّل) لتَحقُّق شيءٍ ما يُقام في إطار تَبيينات أكثرَ خصوصيّةً (سواء أكانت علِّيّة أم عَقليّة). الفَهمُ لَديه هو عمليّةٌ أيضًا تَستخدم جميعَ طاقاتنا، ويَنبغي تَمييزُها عن الفَهم العقلانيِّ المَحض. لو كانَ من المُقرَّر أن تكونَ العلومُ الإنسانيّةُ قادرةً على توسعة نطاق فَهمنا إلى نطاقٍ أكثرَ ممّا هو متاحٌ بينَ أيدينا، فيَنبغي حينئذٍ أن يكونَ الفهمُ متجذِّرًا في تجربتِنا المَعيشة[2]، برأيه للوُصول إلى العالَم البشريِّ تاريخٌ مباشر أكثر من الوُصول إلى الطَّبيعة، أي معَ أنَّ الأعيان الخارجية لها صبغةٌ ظاهريّةٌ لكنَّ محتوياتِ التَّجربةِ الباطنيّة ليسَت كذلك. وهذا يَعني التَّركيزَ على حقيقة التَّجربةِ المَعيشة وعلى الفَهم المباشر للحياة الإنسانية، وهذا ما يَجعلُه أمرًا مُمكنًا.

يتحدَّثُ (دلتاي) عن أنَّ فهمَنا الأوَّليَّ للعالَم الخارجيِّ ليس أمرًا استنتاجيًّا، بل نتلقّاهُ وكأنَّه أمرٌ يُقاومُ الإرادةَ، "عالم التَّجربة" المَعيشةِ ليسَ انعكاسًا نظريًّا فحسب، بل هو بمَنزلةِ تجسُّد لجزءٍ من

1 - محمد بن إبراهيم الشـيرازي [ملا صدرا]: الحكمة المتعالية في الأسـفار العقلية الأربعة، ج3، ص.ص. 499-498.

2 - رودلف مكريل: ديلتاى و يورك دانشنامه فلسفى استنفورد [دلتاي ويورك، دائرة معارف استنفورد]، ص32.

القِيَم المُرتبطة بمَقاصدنا يَحضر لدينا بشكل غير مباشر.[1] ففَهمُ الذّات مُتاحٌ من الخارج فقط. أسلوبُ تَعبيرنا عن أنفسنا سواء في العلاقات أو في العمل هو وسيطٌ مهمٌّ ورئيسٌ في التَّعريف عن أنفسنا. يمُكنُ أن يكون الفهمُ قابلاً للاستناد بشرط أن يتحرَّكَ في التَّفاسير البشرية الموضوعية. لذلك فإنَّنا نَفهم أنفسَنا ليس عن طريق الرُّؤية الباطنية بل من خلال المَسار التاريخيِّ.

الوقوف (الإدراك) الانعكاسيُّ هو الصُّورة البدائيّةُ للوَعي الذي لا يَضعُ محتوًى في مقابلِ المُدرِك، بل يَشمل إدراكًا مباشرًا لهذا الأمر بأنَّ الحقيقةَ -الحاضرة لي مُسبقًا لأيِّ نوعٍ من الفعل المَضمونيِّ الانعكاسيِّ (التأمُّلي) أو أيِّ نوعٍ من التَّمايز في المُدرِك- هي المُدرَك الخاصُّ بانعكاس الإدراكِ المفهومي[2].

برأيه أنَّ التَّجربةَ الباطنية التي أكتسبُها عن طريق الوقوف الانعكاسيِّ (أو التأمُّلي) بالنِّسبة للوَضع الذاتيِّ لا يمُكنُها بأيِّ وجه أن تُوصلَ إلى إدراكٍ لفرديّتي، فأنا أُجرِّبُ فرديّتي (تفرُّدي) من خلال مقارَنة نَفسي بالآخَرينَ[3]، لا يمُكنُني أن أعدَّ الآخرينَ امتدادًا مَحضًا لنَفسي، فهُم في العالَم الخارجيِّ في مُتناوَل يَدي. هذه هي رسالة الفَهم التي تُعطي "نَمطًا باطنيًّا" لما يُقدَّم في الوَهلة الأولى من "مجموع العلائم الحسِّية الخارجية"[4]، في حين يُعبرَّ عن التأثيرات الأوَّلية لدى (دلتاي) بأنَّها التَّجربةُ المَعيشة التي تهَبُنا فهمًا لأنفُسنا، ويُبيِّنُ (دلتاي) هنا بأنَّنا نُدركُ أنفسَنا عن طريق أدراكنا المَوضوعيِّ. الفَهمُ يَستلزمُ التَّوجُّهَ إلى نفسي كما يتوجَّهَ الآخرونَ، يَعني من الظَّاهر إلى الباطن[5]. ويُحدِّد (دلتاي) نطاقَ التَّجربةِ المَعيشةِ والفَهمَ النَّاتجَ عنها في الحالات الباطنية للمُدرِك وفي الحالات الباطنية لدى الآخَرينَ بالتَّرافُق مع ظهور هذه الحالات وبُروزِها، في حين أنَّ (ملا صدرا) يَرى بأنَّ رُقعةَ العِلمِ الحضوريِّ هي النَّفسُ والقوى وحالاتها[6].

---

1 - رودلف مكريل: ديلتاى و يورك دانشنامه فلسفى استنفورد [دلتاي ويورك، دائرة معارف استنفورد]، ص18.

2 - م. ن. ص32.

3 - م. ن. ص43.

4 - م. ن. ص43.

5 - م. ن. ص43.

6 - حسن رهبر؛ وعلي رضا حسن پور: "التجربة المعاشة والعلم الحضوري توجهان في النظم المعرفي لدلتاي والملاصدرا"، ص85.

يَرى (ملا صدرا) أنَّ جوانبَ العلم استنادًا إلى مبدأ اتِّحاد العاقل والمَعقول هي على ثلاث حالات: الأولى، هي حصول الشَّيءِ مع هويّته الحَقيقية ذاتها لدى موجود مُستقلٍّ مثل عِلم الشَّيءِ بمَعلوله، الثّانية، هي حصولُ الشَّيءِ مع هويّته نفسها لوجودٍ مُستقلٍّ بنَحوٍ حُكميٍّ مثل العِلم المُجرَّد بذاته. كلتا الحالتَين هي علمٌ حُضوريٌّ، بمَعنى أنَّ الوجودَ في نفسه مَعلومٌ، وهو عبارة عن المَعقوليّة ووجودِها للجَوهرِ العاقل. ولهذا السَّببِ يُعرِّف العلمَ بأنَّه حضورُ الشَّيءِ لدى المُجرَّد، والحالةُ الثّالثة من العلم، هي حضورُ الشَّيءِ بصورته (وليس بهويّته) لدى أمرٍ مُستقلٍّ حقيقةً، ويُطلَقُ عليه العِلمُ الحُصوليُّ[1].

كلا الفيلسوفَين الكبيرَين يُؤكِّدُ على أنَّ المعرفة الناتجةَ عن تجربة الحياة والعِلم الحُضوريِّ هي مباشرة ولا تَقبلُ الخطأ، لكنَّ (ملا صدرا) يَحُدُّ العلمَ الحضوري بإدراك النَّفس لذاتها وقواها وحالاتها. لذلك فإنَّ ظهورَ النَّفسِ وبروزَ الأفعال الخارجية لها مثل العمل والقول لا يَشتمل على العِلم الحُضوريِّ. في حين يَرى (دلتاي) أنَّ حدودَ التَّجربة المَعيشة ليست الحالات الباطنية للشَّخص فحسب، بل تَشمل ظهورَ الحالات الباطنيّة وبُروزَها للآخرين وفَهمَ معنى أعمالِهم ومقالِهم أيضًا.

ب - الإدراك المشترك

في باب الإدراك ثمّةَ أهميّةٌ بالغةٌ للإجابة عن السُّؤال الآتي بأنَّه ما الأمرُ المُصحِّحُ للتَّفهيم والتَّفاهم الصَّحيح بينَ البشر وإدراكِهم المُشابه للظَّواهر، يَعني هل هذا العِلمُ حتى ولو كان يَقينيًّا لا يُحَدُّ بالمُدرك؟ مَنشأ هذا السُّؤال هو أنَّ كلَّ شخصٍ يُدركُ بنحوٍ باطنيٍّ فقط نفسَه وأعمالَه وسلوكَه، وليس ثمّةَ وسيطٌ هنا يُمكنُ فَرضُه لدى المُدرك، وبالتّالي كيف لنا أن نثقَ بأنَّ العلمَ الحُضوريَّ أو التَّجربة المَعيشةَ هو أمرٌ شخصيٌّ ومَحدودٌ بالمُدرك؟

يَرى (دلتاي) أنَّ مقدرة الشَّخص أو النّاظر المُحترف لفَهم الآثار والمَظاهر الإنسانيّة تَستندُ إلى هذا الاعتقاد بأنَّ جميعَ النّاس يتمتَّعونَ بنظامٍ مُشترك للمَعاني، على الرغم من أنَّهُ يَقبَلُ بإمكانيّة أن تكون مَظاهرُ وتجلِّياتٌ إنسانيّةٌ لفئة ما غيرَ مَفهومةٍ لفئة أخرى، ومن المُمكن أن تكون هذه الأمورُ

1 - محمد بن إبراهيم الشيرازي [ملا صدرا]: إيقاظ النائمين، ص.ص. 108-109.

غريبةً عليهم كثيرًا لدرجةٍ لا تُمكِّنُ بعضَهم من التعرُّف على بعضٍ. من جهة أخرى لعلَّ بعضَهم على علمٍ ببعضٍ لدرجةٍ لا يَحتاجون فيها إلى تفسير. وهنا إذا كانَت مظاهرُ الحياة وتجلِّياتُها غريبةً وغيرَ مَعروفةٍ كليًّا فسيَكون تَفسيرُها وشرحُها غيرَ مُمكنٍ، وإذا لم يكنْ ثمّةَ أمرٌ مُختلفٌ وغريبٌ فلَن نحتاج إلى التَّفسير والشَّرح، لذلك أينَما كان ثمّةَ شيءٌ غريبٌ وغير معلوم يَنبغي استخدامُ آليةٍ للفَهم في ذلك[1]، لكنْ خلافًا لـ "العلم الحضوريّ" فإنَّ صفةَ "العلم الحُصوليّ" هي الشُّموليّة، لذلك إذا قُلنا بأنَّ العلمَ الحُضوريَّ هو أمرٌ شخصيٌّ فإنَّ ذلك لا يُعَدُّ نَقصًا بالنِّسبة إليه.

القضيّةُ التأسيسيّةُ في التَّبرير والمُطابقة في باب الصِّدق تتعلَّقُ بـ "العلم الحُصولي"؛ لأنَّ هذا العلم يُقدِّمُ للإنسان إدراكاتٍ عالميةً شاملة. يَترافق العلمُ الحضوريُّ باليَقين حصريًّا للشَّخص المُدرك ويَتبيَّن من هذا البابِ، يَعني فصل نطاق "العلم الحصولي" والحضوري أحدهما عن الآخر، أولًا، أنَّ العلمَ الحضوريَّ هو أمرٌ شخصيٌّ ولَا يُعَدُّ نَقصًا، ثانيًا، أنَّ الله -عزَّ وجلَّ- قد خلقَ البشرَ من طبيعة واحدة وبأداة معرفية واحدة، وعلَّمَ البشرَ بأمورِهم الباطنية على الرغم من أنَّه شخصيٌّ إلا أنَّه واحدٌ. الحَصيلةُ هي أن يَسعى (دلتاي) في قضية الإدراك المشترك لأن يَحلَّ هذا الأمر من خلال مبدأ "اشتراك البشر في الإدراك" في حين أنَّ (ملا صدرا) يُفسِّره باستخدام مبدأ خلقة البشر بطبيعة واحدةٍ وأداةٍ معرفيّةٍ مُشابِهة[2].

ج - الإدراك الفعّال

تَقترب رؤيةُ كلٍّ من هذين الفيلسوفَين إلى حدٍّ بعيدٍ من طريقة فَهم الإنسان للحياة وما يُحيط به. يَبدو أنَّ كلَيهما يُركِّزان على نشاط النَّفس في مَقولة الإدراك، ويَعتقدان بتدخُّل الإرادة نوعًا ما في الإدراك الإنساني. يقول (دلتاي) إنَّ الأمرَ ليس بأنَّنا نجذبُ بانفعالٍ كلَّ انطباعٍ نجدُه في طريقنا. فنحنُ نُغربِلُ المُدرَكات ونَترُكُ ما ليس له قيمة مُدرَكة عن طريق عمليّة الإدراك النَّفسي. ويُطلِق على ما يُمهِّده الإدراكُ النَّفسيُّ "شبكةَ الحياة النَّفسية الاكتسابية". وبما أنَّ هذه الشَّبكةَ قد اكتُسبت تدريجيًّا فلكلِّ مُدرِكٍ شكلٌ مُختلفٌ، وعمليّة الطَّرد (إخراج ما ليس له قيمة إدراكية) ليس له نتيجة

1 - نورمن بليكى: پارادايم هاى تحقيق در علوم انسانى [نماذج التحقيق في العلوم الإنسانية]، ص99.

2 - حسن رهبر؛ وعلي رضا حسن پور: "التجربة المعاشة والعلم الحضوري توجهان في النظم المعرفي لدلتاي والملاصدرا"، ص94.

واحدة بتاتًا[1]. فهو بدل أن يَبني إحساسَنا الأوَّليَّ بالعالَم الخارجيِّ على الاستنتاجات النَّظرية لأنواع المَعلول للعِلَل، يجدُ جذورَها في نوعٍ من المقاومة التي نشعرُ بها في مقابل الإرادة. لكن يَنبغي للمقاومة أن تكون باطنية وعلى هيئة قُيودٍ للقَصد الإراديِّ لتُدلِّلَ على الوجود المستقلّ[2].

إذنْ إدراكُنا للعالَم الخارجيِّ ليسَ أمرًا مُنفعلاً. بل كلُّ عمليّةٍ إدراكيّةٍ لها "وجهٌ باطنيٌّ" يتضمَّنُ "نوعًا من الطّاقة والطَّنين العاطفيِّ المُشرئبِّ من المَساعي الباطنيّة التي تَربطُها بحياتنا"[3]. يمُكنُ أن نقولَ إنَّ كلَّ وَضعٍ آنيٍّ من الوَعي والإدراك "له نوعٌ من الانعكاس والإحساس والإرادة المُتزامنة"[4].

برأي (ملا صدرا) العلمُ والحياةُ من الميِّزات الذّاتية للوجود، أي ليس الإنسان فحسب، بل جميع الموجودات، فضلاً عن تمتُّعها بالحياة فإنَّها تَحظى بالعلم والإرادة أيضًا، النَّفس في الإدراكات لها دورٌ فعّالٌ ونَشِطٌ أو بتَعبيرِه إنَّ قيامَ النَّفس بالإدراكات هو قيامٌ صُدوريٌّ، وليس قيامًا حلوليًّا، ويُبيِّنُ (ملا صدرا) هذا الأمرَ من خلال مثال ظاهرة الإبصار[5].

وكما أُشير يقومُ (ملا صدرا)، بناءً على مبدئه القائل باتِّحاد العقل والعاقل والمَعقول، بتفسيرِ الإدراكات البشريّة. وهنا أيضًا يقولُ مُعتمدًا على المبدأ نفسه إنَّ النَّفسَ قائمةٌ صدوريًّا بإدراكاتها وليس حلوليًّا، لذلك يمُكنُ عدُّ الدَّورِ الفاعل للإنسان وإرادته في موضوع الإدراك أحدَ مصاديقِ التَّطابُق والتَّقارُنِ بين هذَينِ الفيلسوفَينِ.

1 - رودلف مكريل: ديلتاى و يورك دانشنامه فلسفى استنفورد [دلتاي ويورك، دائرة معارف استنفورد]، ص33.
2 - م. ن. ص36.
3 - م. ن. ص36.
4 - م. ن. ص38.
5 - محمد بن إبراهيم الشيرازي [ملا صدرا]: الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة، ج8، ص179.

النَّتيجة

يَبدو من خلال دراسة آراء هذَين الفيلسوفَين حولَ تجربةِ الحياةِ أنَّه ومع سائر الاختلافات الموجودة بين أُسس الفلسفة لدى (دلتاي) مع "الحكمة المتعالية الصدرائية" لا سيَّما فيما يتعلَّق بموضوع التّاريخ وما بعدَ الطَّبيعة، إلا أنَّه لا يُمكنُ الإشارةُ إلى الاشتراك فحسب، بل نجد توافُقًا بينَهما وانطباقًا. وعلى الرّغم من أنَّ (ملا صدرا) لم يكن يَسعى مثل (دلتاي) لإرساء دعائمِ منهجٍ للعلوم الإنسانية ولنظرتِه للإنسان بكونِه الموجودَ الرَّاقي والمُختلفَ عن باقي الموجودات، الذي يَصل من الجِسمانيّةِ المَحضة ومن أدنى مراتبِ الوجود وأخسِّها إلى التَّجرُّد، ويتصرَّف في العالم بشكلٍ واسعٍ وعَميق، ويمكن رصدُ هذا الموضوع جيِّدًا بأنَّه مثل (دلتاي) يقول بمكانةٍ سامقةٍ ومُميّزة للإنسان يَختلف فيها عن الطَّبيعة.

سَريان الحياة أيضًا هو النُّقطة المشتركة التي يَنظر إليها (دلتاي) من حيثُ مميّزات الحياة، ويَنظر إليها (ملا صدرا) من حيث الوجود والحركة في الجَوهر. تقارُبُ الرُّؤية الفعّالة لإدراكات النَّفس ومَنظومة العلمِ البشريِّ كثيراً موضوعُ القائم الصُّدوري للإدراكات في علمِ النَّفس لدى (ملا صدرا). إنَّ عدمَ وجود واسطةٍ في التَّجربة المَعيشة والعلمِ الحُضوريِّ على الرغم من جود اختلافٍ في مساحتهما وحدودِهما يُظهرُ نَوعًا من الرُّؤية المُتشابهةِ في إدراك النَّفسِ البشريّة. الإدراكُ الذي يَفتحُ لنا استنادًا إلى الاشتراك بينَ البشرِ في الفَهم كُوّةً لفَهمِ أنفسِنا وفَهمِ الآخَرينَ.

لائحة المصادر والمراجع

بالعربية والفارسية

1. بليكى، نورمن، پارادايم هاى تحقيق در علوم انسانى [نماذج التحقيق في العلوم الإنسانية]، ترجمه بالفارسية السيد حميد رضا حسنى محمد تقى، ايمان مسعود ماجد، مركز بحوث الحوزة والجامعة، قم، 2017م.

2. بالمير، ريتشارد، علم هرمنوتيك [الهرمنوطيقا]، ترجمه بالفارسية محمد سعيد حنايى كاشاني، دار هرمس للنشر، طهران، 2017م.

3. دلتاى، ويلهلم، مقدمه بر علوم انسانى [توطئة للعلوم الإنسانية]، ترجمه بالفارسية منوتشهر صانعي دره بيدي، دار ققنوس للنشر، طهران، 2009م.

4. ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ ، تشكل جهان تاريخى در علوم انسان [تشكّل العالم التاريخي في العلوم الإنسانية] ترجمه بالفارسية منوتشهر صانعي دره بيدي، دار ققنوس للنشر، طهران، 2010م.

5. ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ ، به فهم در آوردن جهان انسانى [فهم العالم البشري]، ترجمه بالفارسية منوتشهر صانعي دره بيدي، دار ققنوس للنشر، طهران، 2013م.

6. رهبر، حسن؛ حسن پور، علي رضا، التجربة المعاشة والعلم الحضوري توجهان في النظم المعرفي لدلتاي والملاصدرا، حكمت صدرايى [الحكمة الصدرائية]، عدد (95)، خريف وشتاء 2017م.

7. شرت، إيون، فلسفه علوم اجتماعى قاره اى [فلسفة العلوم الاجتماعية القارية]، ترجمه بالفارسية هادي جليلي، ط. رابعة، دار ني للنشر، طهران، 2014م.

8. عبوديت، عبد الرسول، در آمدى به نظام حكمت صدرايى [مدخل إلى الحكمة الصدرائية]، المجلد الثالث، دار فروند للنشر، طهران، 2015م.

9. فروند، جولين سمت، آرا ونظريه ها در علوم انسانى [الآراء والرؤى في العلوم الإنسانية]، ترجمه بالفارسية على محمد كاردان، النشر الجامعي، طهران، 2009م.

10. مطهرى، مرتضى، حركت و زمان [الحركة والزمان]، المجلد3 ، دار حكمت للنشر، طهران، 1996م.

11. الشيرازي [ملا صدرا]، محمد بن إبراهيم، الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1981م.

12. ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ ، مفاتيح الغيب، تح. محمد خواجوى، مؤسسة الأبحاث الثقافية، طهران، 1994م.

13. ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ ، إيقاظ النائمين، تر. محسن مؤيدى، جمعية الحكمة والفلسفة، طهران، د.ت.

14. ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ ، المبدأ والمعاد، تح. السيد جلال الدين آشتياني، جمعية الحكمة والفلسفة، طهران، 1976م.

15. ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ ، أسرار الآيات، محمد خواجوي، جمعية الحكمة والفلسفة، طهران، 1981م.

16. ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ ، الشواهد الربوبية في المناهج السلوكية، تصحيح وتعليق السيد جلال الدين آشتياني، المركز الجامعي للنشر، مشهد، 1981م.

17. ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ ، شرح الهداية الأثيرية، تصحيح محمد مصطفى فولادكار، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، 1422 هـ.ق.

18. محمد زاده، رضا، أسس العلوم الإنسانية برؤية دلتاي والملاصدرا، معرفت فرهنگى اجتماعى [المعرفة الثقافية والاجتماعية]، العدد 4: 61-94، 2000م.

19. مكريل، رودلف فارين اينغو، ديلتاى و يورك دانشنامه فلسفى استنفورد [دلتاي ويورك، دائرة معارف استنفورد] العدد 99، ترجمه بالفارسية السيد مسعود الحسيني، دار نشر ققنوس،

طهران، 2017م.

20. منفرد، مهدي، ما الفلسفة المقارنة، پژوهشهای فلسفی – کلامی [البحوث الفلسفية – الكلامية]، العدد 64: 25-42، 2015م.

باللغات الأجنبية

1. Dilthey, Wilhelm . Introduction to the Human Sciences. (Selected Works Vol. 1) ed. by RudolfMakkreel and Frithjof Rodi. Princeton: Princeton University Press, 1989

2. _____, Understanding the Human World. (Selected Works Vol. 2) ed. by Rudolf Makkreeland Frithjof Rodi. Princeton: Princeton University Press, 2010

3. _____, The Formation of the Historical World in the Human Sciences. (Selected Works Vol. 3) ed. by Rudolf Makkreel and Frithjof Rodi. Princeton: Princeton University Press.2003